كُنّاشة: (١٨)

أنماط البحث في الكلمة القرآنيّة

إبراهيم عليّ السّفسيف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ.. الحمد للّه ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على نبيِّنا مُحمَّد وأهلِ بيته الطَّاهرين، ولا حول ولا قوَّة إلَّا باللَّه العليِّ العظيم.

****

يختلف تفسير الآيات القرآنيّة عن البحث في الكلمة(المفردة) القرآنيّة، في أنّ التّفسير يستهدف إعطاء مفاد الآية بمجموع كلماتها، أمّا البحث في الكلمة القرآنيّة فيستهدف بيانها -في حدّ ذاتها- مدلولًا وإيحاءً وبلاغةً.

وبعبارة موجزة: البحث في الكلمة القرآنيّة شرط التفسير، والتفسير كاشف عن ظلال الكلمة ومعلّل لاختيارها.

ومن منظار زمنيّ مُتعاقب، يمكن رصد ثلاثة من أنماط البحث في الكلمة القرآنيّة، بما هي كلمة لا بما هي جزء من أجزاء الجملة التّامّة أو الآية القرآنيّة. وهي كالآتي:

النّمط الأوّل:

مدلول الكلمة القرآنيّة

تحت مُسمّى (غريب القرآن) بُحثت الكلمة القرآنيّة بردّها إلى مدلوها في كلام العرب، زمن ما عُرف ببداية التدوين في الحضارة الإسلاميّة في نهاية القرن الهجريّ الأوّل.

والغريب هنا بمعنى ما غَمُضَ معناه ودَقَّ. فهو ليس في مقابل النّافر/الشّاذّ، بل في مقابل المشهور/المعروف. والغريب والمعروف أمران نسبيّان بالنّسبة للأفراد، فما هو غريب عند أحدهم ربّما هو معروف عند غيره.

هذه النّسبيّة، تُفسّر ظهور البحث في الكلمة القرآنيّة وفق هذا النمط منذ تلك الفترة الزمنيّة، بل قبلها.

فكون العرب فصحاء -عمومًا- لم يحُلْ دون بيان مدلول الكلمة القرآنيّة عند العرب؛ خصوصًا مع استحضار تنوّع وجوه الاستخدام القرآنيّ للّفظة الواحدة، واختلاف اللّغات/اللّهجات بين القبائل العربيّة، ثمّ اختلاط العرب بغيرهم وظهور العُجْمة في كلامهم.

ومن أوائل ما أُلّف في غريب القرآن ووصل إلينا كتاب (تفسير غريب القرآن المجيد) لزيد الشهيد(ت:١٢٢هـ) ابن الإمام السّجّاد(عليه السلام).

في القرن الخامس الهجريّ تحديدًا، شهد البحث في الغريب تطوّرًا على مستوى المنهج ليشمل كلّ الكلمات القرآنيّة، خصوصًا مع كتاب (مفردات ألفاظ القرآن) للرّاغب الأصفهانيّ(ت: ٤٢٥هـ).

ثمّ من بعده، سيستمرّ البحث في الكلمات القرآنيّة على منواله، وباستدراك ما فاته حتّى عصرنا هذا تحت مسيمّات متنوّعة، فإضافة إلى (غريب القرآن)، سنجد (ألفاظ القرآن) و(مفردات القرآن)، وكذلك (كلمات القرآن) و(معاني القرآن)[1].

النّمط الثّاني:

جماليّات الكلمة القرآنيّة

مع بداية النّصف الثّاني من القرن العشرين، ظهر مجموعة من المؤلفين الذين اعتنوا بالبحث في الجماليات الحسيّة والبصريّة والسّمعيّة للكلمة القرآنيّة، وما تُفضي إليه من التأثير في المتلقي عقليًّا ونفسيًّا.

والبحث في الجماليّاتّ قائم على افتراض أنّ الكلمة القرآنيّة لها خصوصيّة فنيّة في البناء اللّغويّ اختيارًا وموقعًا، وكشف ذلك يتطلّب تجاوز المعنى المعجميّ للكلمة وإيحاءاتها القريبة، وملاحظة ثنائيّة الشّكل والمضمون. حيث يظهر للمتأمّل المتعمّق أنّ الشّكل ليس زخرفة زائفة، بل يُساند المضمون الفكريّ ويجليه بامتياز.

لقد جاء هذا النمط تتويجًا لجهود علميّة سابقة عليه ركّزت على اللّمحات الجماليّة للكلمة القرآنيّة، وعلى وجه الخصوص الكتب التي بحثت في مجازات القرآن ووجوه إعجازه، إضافة إلى كتب التّفسير بالعقل.

---

[1] للمزيد حول هذا الاتّجاه، انظر: إبراهيم بن عبدالرحيم حافظ حسين، علم غريب القرآن الكريم.. مراحله ومناهجه وضوابطه: ١٦-١١٠.

ومن أبرز مَنْ كتب في هذا الاتّجاه الكاتبة بنت الشّاطئ عائشة عبدالرحمن(ت:١٤١٩هـ) التي تلمّست جمال الكلمة القرآنيّة في ظلالها النّفسيّة المتولّد عن البحث في الفروق اللّغويّة بين الكلمات في كتابيها (التّفسير البيانيّ) و(الإعجاز في البيان).

وكذلك المفكّر سيد قطب(ت:١٩٦٦م) الذي بحث سحر البيان القرآنيّ من خلال تحليل التّصوير الفنّيّ النّابع من الكلمة ذاتها، في كتبه الثلاثة (تفسير في ظلال القرآن) و(التّصوير الفنّيّ في القرآن) و(مشاهد القيامة في القرآن)[١].

النّمط الثّالث:

بلاغة الكلمة القرآنيّة

برز هذا النّمط مع مطلع الألفيّة الجديدة على يد أستاذ اللّغة العربيّة الدّكتور فاضل السّامرّائيّ، عبر كتابه (بلاغة الكلمة في التعبير القرآنيّ).

وعلى خلاف النّمطين السّابقين اللّذين كانا حكرًا -تقريبًا- على الطبقة المتخصّصة في هذا الشأن، وبعض المثقّفين المهتمّين بالثّقافة عمومًا. حيث لقي هذا النمط انتشارًا واسعًا في الأوساط الاجتماعيّة والثّقافيّة منذ ظهوره؛ بفضل القنوات الفضائيّة ووسائل الاتّصال والتّواصل الاجتماعيّة الحديثة.

ويُرجع الدكتور السّامرّائيّ دواعي بحثه في بلاغة الكلمة القرآنيّة إلى ثلاثة أمور، هي:

[١] للمزيد حول هذا الاتّجاه وتطوّراته، انظر: د. أحمد ياسوف، جماليات المفردة القرآنيّة: ١٣-٩٢.

- أنّ المعنيّين بدراسة البلاغة القرآنيّة قد سبقوا فأسموا في العديد من مباحث هذا الكتاب، كظاهرة الذكر والحذف في الكلمة القرآنيّة، وبقيت ظواهر أخرى غير مبحوثة، ويأتي هذا الكتاب ليبحثها.
- تلمّس السابقون عليه إلى دراسة بلاغة القرآن في الفروق بين استخدام الكلمات وساقوا تعليلاتهم لها، لكنّ قسمًا منها غير مقنع بالنسبة إليه، بل جاء كثير منها مُتكلَّفًا، وهو يزعم أنّه أتى بما هو أحسن ممّا علّلوا.
- أنّه لم يجد في شأن الكلمة القرآنيّة وتعليل استعمالاتها كتبًا متخصّصة، دون إغفال الإشارات الدّقيقة إلى ذلك في كتب التّفسير العقليّ وكتب المتشابِه القرآنيّ وكتب غريب القرآن، "فحاولتُ أنْ أضع بداية متواضعة في هذا الموضوع فلعلّه يأتي مّنْ يُتمّ العمل ويتوسّع فيه"[1].

وهذا ما اقتضاه أنْ يبحث بلاغة الكلمة القرآنيّة وفق منهج قائم على تبويب الكلمات القرآنيّة المتشابهة ضمن ظواهر -سمّاها موضوعات-، ثمّ دراستها في إطارها الجزئيّ الخاصّ بالكلمة أو الكليّ العامّ بالظاهرة.

وهذا منهج مبتكر؛ حيث إنّ السابقين عليه كان منهجهم مبعثرًا بحسب موقع الكلمة من القرآن كما هو عند أصحاب الاتّجاه الأوّل. أو قائمًا على الانتقاء للكلمة ومتشابهاتها، كما هو عند أصحاب الاتّجاه الثاني.

وعن أدواته في تعليل وتوجيه سبب الاختيار للكلمات القرآنيّة، وبما يكشف سرّ بلاغتها، فيُحدّدها في:

[1] بلاغة الكلمة في التعبير القرآنيّ: ٥.

١. القواعد اللّغويّة المقرّرة والمسلّم بها. بما تشمله من قواعد نحويّة وصّرفيّة وإملائيّة وبلاغيّة.

٢. الاستعانة بالسّياق الّذي ترد فيها الكلمات القرآنيّة. وهو الجوّ العامّ اللّغويّ والثقافيّ الذي تقع فيه الآيات القرآنيّة.

أمّا الظواهر البلاغيّة التي درسها، فهي على نحو الإيجاز مايلي:

ظاهرة ذكر وحذف حرف في الفعل، وظاهرة إبدال كلمة أو حرف وعدم أبدالهما، وظاهرة مجيء صيغة (فعّل) و(أفعل) بمعنًى واحد، وظاهرة بناء الفعل للمجهول، وظاهرة الوصف، وظاهرة الإفراد والتثنيّة والجمع، وظاهرة الحركة غير الإعرابيّة، وظاهرة تعاور الكلمات.

الأربعاء: ٢٢ ربيع الثاني ١٤٤٧هـ/ ١٥ أكتوبر ٢٠٢٥م.